

منتسكيو

آراؤه ومثله

للأستاذ إسماعيل مظهر

إن اسم منتسكيو لاسم عظيم . والأثر الذي خلفته أعماله ينزل من الخلود في داخل أوروبا وفي خارجها منزلة تمهد لمن يريد أن يترجم له أن يتصل به متتجيا طرقا شتى ومداخل متفرقة . ذلك بأن أعمال هذا الرجل العظيم قد تركت أثرا رئيسا في جميع ما ظهر في عالم الفكر من النظريات السياسية ، حتى أن كاتباً من أشهر كتاب هذا العصر قد ذهب في نقد نظرياته مذهبا قضى فيه بأنها أول ما عهد لظهور فكرة « العقد الاجتماعي » التي كونها « رُوسو » ودافع عنها أبلغ دفاع . ولا شك في أنك تبهر ببمقربة هذا الانسان الفذ إذا علمت أن نظرياته السياسية كانت العمدة في صوغ دستور الولايات المتحدة ، ومن هنا كان أثر « منتسكيو » عظيما في الترويج للفكرات والمبادئ التي قام عليها الدستور الانجليزي ، كما كانت باكورة الدراسات العميقة التي تناولت بدايات التكوين السياسي الذي نشأ في فرنسا خلال القرون الوسطى . فكان مجموعة أعماله ودراساته وأفكاره من الرجال الذين عبدوا الطريق للثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر . لهذا يجدر بنا أن نعهد للكلام في الترجمة له يذكر شيء من الأطوار التي تقلبت فيها حياته السياسية . فقد كان « منتسكيو » رئيسا لمحكمة « بور دو » العليا ، وهي أول هيئة تشريعية إقليمية كانت في فرنسا . وكان أعضاؤها يطمعون في أن يكون لهم مقاعد في محكمة باريس العليا . غير أن محكمة العاصمة الكبرى لم تدعن لهذا الطلب . لهذا ظلت النزعة « البرلمانية » جليلة الأثر جد الجلاء في كل ما كتب « منتسكيو » ، بالرغم مما كان يطب فيه من الالامات التاريخية المستفيضة وتعلقه في مجال البحث الاجتماعي بمعالجة مشكلات أوروبا خاصة ؛ والانسانية عامة . فيجب أن نعي إذن ذلك الأثر المزدوج الذي أحدثته المحاكم العليا في تاريخ فرنسا . فانها كانت حتى نهاية القرن السادس عشر الاداة الرئيسة التي اتخذتها الملوكة المركزية ، ذريعة لدفع نفوذها ، وتثبيت سلطتها ،

إتقاء لنفوذ النبلاء ومطامعهم من ناحية ، ودرءا لسلطان الكنيسة من ناحية أخرى . وكانت هذه الاداة مجدية في إضمار نفوذ النبلاء الموروث ، وهو نفوذ يتضمن فيما يتضمن سلطانا واسعا ، ماليا وإداريا

وكانت الخطة أن تقرر المحاكم العليا أن من حقها النظر في « الدعاوى الملكية » التي كان كبار أصحاب القطنع يرغبون في أن تنظر أمام محاكمهم الخاصة . وكذلك قررت تلك المحاكم على اختلافها ، أن من حقها النظر في الدعاوى التي يقتضي النظر فيها انتقاما من سلطان الكنيسة ، قضائيا وماليا . ولا شك في أن القوة الباطنة التي حازتها الملوكة المركزية في فرنسا في القرن السابع عشر ، كانت نتيجة لأشياء ثلاثة : الجيش ، ومجلس البلاط ، والمحاكم العليا

ولم تكن المحاكم العليا عند أول نشأتها في فرنسا ، إلا جزءا من مجلس البلاط . وكان من أثر هذه المحاكم كما يقول « هانوتو » أن احتفظت فرنسا بوحدةها ، ولم تُمزق ولايات متفرقة . وفي آخريات القرن السادس عشر حدث انقلاب ، سادحا حكم فرنسا العليا ، وظهر أثره واضحا في روحها المعنوية وفي عملها . فانها بدأت تستعك بقوة بكل ما يدعى الملك من حقوق الدولة ، لتقضي بذلك على ما بقي لكبار أصحاب القطنع ورؤساء الكنائس من الامتيازات . غير أنها ، بجانب هذا ، بدأت تظهر بظهور الاداة المستقلة عن إرادة الملك أيضا . فكانت بطبيعة تكوينها وتاريخها ، الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن تمارض إرادة الملك آمنة رعية البال . ذلك بأن أعضاء هذه المحاكم كانوا يملكون بالوراثة حق الجلوس فيها . ولم يكن من الهين أن يسلب واحد منهم حقه فيها ، حتى أن « رشيليو » في كتابه « العهد السياسي » ، قد عبر بعمق عن الأخطار التي يجوز أن يواجهها العرش من نفوذ أعضاء المحاكم العليا ، أو من مسلكتهم التي يسلكونها عند الضرورة . وعصر « الفرونْد » Fronde والسنوات الأخيرة من حكم الملك لويس الخامس عشر ، قد حققت كل ما خال في مخيلة « رشيليو » من الخوف . ومجل ما نرى إليه من هذا كله أن نوضح أن « منتسكيو » كان يرى أن الوظيفة الأولى للمحاكم العليا إنما هي في أن تصمد لقوة الملك وأن تحد من سلطانه : قال :

« إن هذه الهيئات — المحاكم العليا — من أبعد الأشياء

وكان عريض الأمل ، شامل النظر ، كلى المرمى ، إنسانى النزعة ، فإن الثورة الفرنسية ، وهو من أكبر الممهدين لها ، لم تلبث أن استقوت عليها . بعد قليل الروح القومية ، فأسلت نابليون قيادها ، وألقت بين يديه بروحها ؛ تلك الروح التى كانت أكبر الأسباب فى انتصاراته ؛ غير أن سيل الفكر الجارف الذى تقدم شوب الثورة ، كان من غير شك ، ذا صبغة إنسانية . ومن كآات لمتسكيو ننقلها هنا يتضح لك الاتجاه الحقيقى للفكر الفرنسى قبيل الثورة العظمى ؛ قال :

« إذا وضع لى أن شيئاً من الأشياء لى فيه نفع ، ولكنه مضر بأسرتى ، فإنى أنفيه من عقلى ، وأطرده من مخيلتى . وإذا وقعت على شيء نافع لأسرتى ، ولكنه مضر بوطنى ، فإنى أجهده فى أن أنساه . أمّا إذا سقطت على شيء مفيد لوطنى ، ولكنه مضر بأوروبا ، أو بالسلالة البشرية ، فأقل ما أعتبر أن نيله جرعة كبرى . »

وكان لمتسكيو نظرات فلسفية عميقة فى حقيقة الخلق الإنسانى ، طبقها واتخذها فى الحياة إماماً . وكان ككل الفلاسفة العاملين الذين درجوا من قبله يعتقد أن اللذة والألم دستور السلوك الإنسانى . ولكنها اللذة التى لا تظفر بتصير شهوة ، والألم الذى يحتمل بصبر وشجاعة فى سبيل تحقيق المثاليات ؛ قال :

« إن دورة عقلى قد هيئت ، لحسن الحظ ، بحيث تجعلنى شديد الحساسية فأتأثر بالأشياء ابتغاء الاستمتاع بها . ولكن لم تبلغ حساسيتى بالأشياء حدّاً يجعلنى أتألم من فواتها »

من هنا نستطيع أن نؤلف صورة تدلنا على شيء من حقيقة « متسكيو » ، وهذا كافٍ للتعريف به . ولهذا ننقل الى الكلام فى مبادئه ونظرياته السياسية ، فإنها أخص ما يعلق بالذهن كلما ذكر اسم « متسكيو »

إذا شرعت تقرأ كتاب متسكيو «روح القوانين» ، وضحت لك صورتان جليتان : الأولى ، رجوعه فى التدليل على نظرياته إلى التاريخ ؛ والثانية : نزعه إلى أحكام الآخرة بين النظرية السياسية ، والعلوم الطبيعية . وللصورتين أهميتهما القصوى فى التعريف بمتسكيو ودرس مذهبه . ناهيك بأنهما بداية ذلك التطور الفكرى الكبير الذى تناول منازع هذا الرجل العظيم منذ نشأته

تلاوياً مع طبع الملوك . فإن أعضائها كثيراً ما ينقصون على الملك برسد حقائق غير مرغوب فى سماعها ولا يتصلون بالملك إلا لمرض الشكايات الحق . وأنت إذ ترى أن فئة من البطانة الملكية تلقى فى سمع الملك دائماً أن الشعب فى رعد وسعادة فى ظل الحكومة ، إذا بتلك المحاكم تظهر ما فى أقوال هؤلاء من كذب ونفاق ، وتقرع مسامع العرش ، حيناً بعد حين ، بصدى تلك الأنات العميقة الجافية التى تنفس عنها صدور أولئك الذين يمثلونهم »

كتب متسكيو بضع عبارات بالغة متعنى الجودة والابداع حلل فيها نفسيته ، وصور بها أخلاقه وبجس بن أن تنقل بعض فقرات منها ؛ وذلك أقوم سبيل تعرف به شيئاً من حقيقة متسكيو : يقول إنه وهب حساً عميقاً جملة يقدر معنى الصداقة ، فلم يجازف بان يخلع نعت الصديق على كل من اتصل بهم من الناس ؛ ولذا يذكر ، ولعله يذكر بحق ، أنه لم يفقد طوال حياته غير صديق واحد .

وكان بخجولاً . حتى أن الخجل كان مصيبته الخلقية الكبرى ؛ قال :

« يخجل إلى أن الخجل يفشى على كل أعضائى الجسدية ، فيربط لسانى ، ويظلم أفكارى ، ويقضى على كل ما عندى من قدرة على التعبير . ومن العجيب أنى أقل تعرضاً لنوبات الخجل فى حضرة ذوى الألباب منى فى حضرة الحقى والغمورين »

فلا عجب إذن إذا رأينا « متسكيو » يحق كل المقت ذلك الجو الخائق الذى كان يأنسه فى البطانات الملكية ؛ قال :

« لم أجهد نفسى فى أن أسعد وأربى من طريق البطانة . وإنما أمكّت دائماً أن أرى من عملى فى ضياعى ، وأن ألقى الخير من يد الآلهة لا من يد البشر » .

وليس لنا بعد هذا أن نعجب من أن « متسكيو » كان لا يرى سبيلاً للفرار من متاعب الحياة إلا بالنزوع إلى أسى ما تنجيه إليه الأنفس الآيية ، المتطلعة إلى المثل العليا ، والغايات السامية ؛ قال :—

« كان الإكباب على الدرس والتحصيل الدواء الواحد الذى استطعت أن أنجو به من كثير من ممرارات الحياة . ولم آنس فى الحياة من حرج ، لا تكفى ساعة واحدة أقضيها فى القراءة ، لكى تذهب بكل آثاره من نفسى »

انجلترا، مشغولاً بمسائله ومشكلاته . ولكن نظره فيه كانت شاذة بالرغم من طرافتها

ولم يهتم « منتسكيو » التاريخ العام، الذي يعتبر تاريخ رومية وفرنسا وانجلترا، أجزاء منه وتنفكا؛ بل زوده بناية الدرس والتحصيل . فان تاريخ مصر وبابل والهند والصين واليابان وشعوب خط الاستواء، وشعوب الجبل الشمالي، كانت ماثلة له حية في مخيلته . ولكن لم يكن الزمان قد زود المشتغلين بالتاريخ بمادة يستخرجون بها من ماضي الشعوب صوراً واضحة جلية يظهرنا هذا على أن عنايته بالتاريخ كانت كبيرة ولكن من الخطأ أن تصور أن فلسفته للسياسية كانت مستمدة من معرفته بالتاريخ، أو مستندة إليها فانك إذا مضيت تماثل بين ما كتب أرسطوطاليس أو لا دويرايس، وبين ما كتب « منتسكيو » وقمت على الفارق العظيم، والصدع الثاني الذي يفصل « منتسكيو » في العصور التي تقدمته، والعصور التي تلتها، وبجملته الفارق بين الأساليب التي اتبعها القدماء والأساليب التي اتعها المحدثون . فان « منتسكيو » كان يتخذ من التاريخ مضرباً للأمثال والثلاث، ليؤيد وجهة نظره، ولكنه لم يستمد من التاريخ بالذات تلك الآراء التي قامت عليها نظرياته السياسية، وليس عندنا من دليل على هذا أقوم من الدليل الذي ترجع فيه إلى الفصل الثامن من كتابه « روح القوانين » إذ يقول: « كما أن الديمقراطية تفسد وتتهار باعتداء الأمم على المحاكم العليا - البرلمان - والحكام والقضاة، واستلاب حقوقهم وخصائصهم، كذلك تسقط الملكيات، أو هي تأخذ في الانحلال إذا مضت تسلب من النقابات والجمعيات والمدن امتيازاتها الطبيعية والحالة الأولى مظهر لاستبداد الجماعات، والثانية مظهر لاستبداد الفرد . »

« إن السبب الذي أسقط أسبق أسبق « تسن » و « سووى » كما يقول مؤلف صيني، إنما يرجع إلى أن أمراء الأسرتين لم يكتفوا من الحكم بالانصراف الأعلى على شئون الدولة، كما كان شأن الأمراء في الأسر اللواتي سبقت في الحكم، وكما هو طبيعي أن يكون في ملوكيات رشيدة؛ بل حاولوا أن يتحكموا ويحكموا في كل شأن من الشئون بأنفسهم، وبغير واسطة . وكلمات هذا المؤلف الصيني، تعبر عن الأسباب التي يعود إليها

مفكرراً، حتى تمام تكويته كقوة عظيمة، أثرت، ولا تزال تؤثر، في مناحي الفكر والعمل الانساني .

كان « منتسكيو » مفرط العناية بقراءة التاريخ . ولن نبالغ إذا قلت إنه كان بالتاريخ أشد هياماً من « روسو » . ذلك إلى أنه أوسع من « فولتير » نظراً، وأشملاً إحاطة، وأزعم إلى معالجة المشكلات الاجتماعية . ومع كل هذا فإن معرفته بالتاريخ مقيسة على مفهومه الحديث، كانت ضيقة محدودة . وكان من المحتوم أن يكون علمه بالتاريخ ضيق الحدود؛ إذا وعينا أن التاريخ الحديث خلق جديد من مخلوقات القرن الثامن عشر

كانت معرفة « منتسكيو » بمجاذب التاريخ تامة، بالنسبة لمتى الضبط والإحاطة . ولقد حوى كتابه « عظيمة الرومان وانحطاطهم » أسس صور البلاغة، وجمال الأسلوب، بل إنك لا تقول شططاً إذا قضيت بأن أكثر النظريات التحليلية التي بثها فيه « منتسكيو » عند الكلام في أربعة القرون التي أطلت نشوء النصرانية، سبقاً وتمقيماً، كانت عادلة مترنة، لاهي إلى الافراط ولا هي إلى التفريط . ولقد كتبت الفصول الأولى من هذا الكتاب في عصر لم يكن سلطان النقد قد تناول فيه التاريخ بعد؛ فإنه كتبها قبل ظهور كتاب « نيوهر » الذي يمد الفتح الأول للنقد في مجال التاريخ . وكانت آراؤه في القيصرية الرومانية الغربية وسبب انحلالها نفس الآراء التي ذاعت في سبب انحلال القيصرية البورنظية . وتلك وجهة من النظر التاريخي ذاعت في القرن الثامن عشر؛ ومن حسن الحظ أن البحوث التي ظهرت في خلال نصف القرن الماضي، قد طهرت منها عقول المؤرخين، تطهيراً كاملاً

وكان « منتسكيو »، إلى هذا، محيطاً بتاريخ رومية أوسع إحاطة، فها هو جوهرة أقوم فهم، ملأاً بمناصره أمثناً إلماً . ولكن معرفته بتاريخ اليونان كانت بنير شك أقل من معرفته بتاريخ رومية . وكتاباته في تاريخ العصور الوسطى، لا تخرج عن كتابات مليم بالآثار البدائية (الأرخيولوجيا) لا بالتاريخ

أما معرفته بتاريخ فرنسا فكانت شاملة، وبخاصة تاريخها في القرنين السادس عشر والسابع عشر؛ ولا شبهة في أنه كان محيطاً بتاريخ العصر الذي عاش فيه . وكان شديد العناية بدرس تاريخ

سقوط الملوكيات في كل الأزمان . »

« إنما تسقط الملوكيات بأن تقوم في نفس الملك شهوة أن يظهر جبروته وسلطانه ، فيحرّف النظم المقررة ويفسدها ، بدل أن يحافظ عليها ويرعاها . ومثل ذلك أن يقتصب الحقوق والامتيازات التي تقوم عليها بعض النظم من يد فئة ، ويهبها باختياريه ، ولجورد إشباع شهوته ، لفئة أخرى ، أو أن يحكم خياله وتصورات في شؤون الدولة ؛ دون عقله ونسهاه . »

« تنهار الملوكية عند ما يقدم ملك يحاول أن يمحصر كل شيء في ذاته . فيركز الحكومة في عاصمته ، ويركز العاصمة في بطانته وحاشيته ، ويركز البطانة في ذاته ؛ وفوق كل هذا يكون سقوط الملوكية سريعاً مروّعاً ، عند ما يسيء الملك فهم سلطته ومركزه ، وحب شعبه له ، وعند ما يفتب عن فهمه أنه يجب أن يشعر دائماً بأنه في أمن وسلام ، قدر ما يشعر السيد القاهر أنه دائماً في خطر » اهـ

فهل من شك في أن « منتسكيو » ، وهو رئيس محكمة « بوردو » العليا إنما يسّر بهذا عما قام في ذهنه عن ملوكية لويس الرابع عشر وخلفه ، وأنه ذلك المؤلف الصيني ، الذي يخيل إلينا أنه لم يوجد إلا في « تخيّل مؤلف « روح القوانين » لم يُفحم في هذا الموقف إلا ليكون مادة لضرب التمثيل ، وإظهار الشلّة ؟ ليس هذا ببعيد . ذلك بأن « منتسكيو » يعرف تمام المعرفة ، كما ذكر في غير الوطن الذي نقلنا عنه هذا القول ، أن الملوكيات كثيراً ما فسدت وانحلت متأثرة بأسباب تختلف كل الاختلاف عن الأسباب التي ذكرها .

كذلك لا يستطيع المؤرخ أن يمزو كبير قيمة لزعة هذا المبقرى إلى الاستعانة بالعلوم الطبيعية . فإن قوله بأثر البيئة الطبيعية كأن أمراً له في البحوث الاجتماعية والسياسية ، إلى جانب الجودة والحداثة ، خطره العلمي . غير أن هذا البحث مجلّواً في الصورة التي لا بدته في ما كتب « منتسكيو » ، وفي الصورة المحرفة التي ظهر بها في بحوث « روسو » ، لن يجد فيه الفكر الحديث مقناً ، أو يقع فيه على حقيقة تنفع الغلة . فلقد عالج تطبيق العلوم الطبيعية على الاجتماعيات من وجهة هي على غرابتها وبعدها عن مناحي الفكر الحديث ، تثير عند المحدثين الذين

يعرفون مرابى العلم العمل ومنازعه ، كثيراً من الاستخفاف بها ، والسخرية منها . ومثلنا على ذلك ما عالج به حالات انجلترا الاجتماعية من الآراء التي بثها في فصلين من « روح القوانين »^(١) فإن آراءه التي بثها في ذيك الفصلين ، تحمل على القول بأن « منتسكيو » كان فيها إلى المزل والمجاة ، أقرب منه إلى الجد . ويريدني بهذا الأمرفة أن فلاسفة القرن الثامن عشر لم يتعففوا عن النزعة إلى المجون ، بجانب ما كان فيهم من حب النفع العلمي ، والاستقامة في التفكير . وعندى أن « منتسكيو » لم يرم بما كتب في الفصلين السالفين إلا إلى الاستخفاف بقراءه من الانجليز . وما قولك في رجل يبدأ البيان عن حالات الانجليز الاجتماعية بالكلام في تأثير طقس بلادهم ، فيعزو إليه نزعة الانجليز إلى الانتحار ؛ ثم يحاول أن يمل الصورة التي تلابس ميولهم القومية ، فيقول إنها ترجع إلى ضعف الاستعداد الطبيعي على ترشح العصاة العسوية . وهذا قول لا يكتفى أن يكون سبباً في تحليل ميول الانجليز القومية لا غير ، بل يكفي للقول بأن الشعب الانجليزي مقضى عليه بالفناء جميعاً .

وهو يحاول في فصل تال أن يفسر تأثير ذلك الأمر على شكل الحكومة الانجليزية فيقول إن سلاله لها استعدادها في التأثر بالاستنارات المختلفة وقلة ثباتها على شيء ، لن تصبر على حكومة تلقى مقاليدها في يد فرد واحد ، فلا تقوم خارجه على سلطان الحكومة وعلى سلطانه ، وإنه من الطبيعي أن تحلم أمة غرس فيها طقس البقعة التي تسكنها من كرة الأرض خليقة الفلق والجزع ، بحيث لا تتحمل البقاء على حالة بعينها ، أو الصبر على شيء بذاته ، بقوانين مستخلصة من التجارب ، فيكون من الصعب نبذها والنزوع إلى غيرها . ويخلص « منتسكيو » من هذا إلى رأى أعجب من كل آرائه الأخر ، مؤداه أن الدستور الانجليزي ، إنما هو جنى الضباب الذي يحط على بلادهم . أضف إلى ذلك أنه يمزو دين الانجليز إلى السبب عينه ، في موضع آخر من ذلك الكتاب .^(٢)

اسماعيل مظهر

(١) ما الفصلان الثاني عشر والثالث عشر .

(٢) المصادر : دائره المعارف البريطانية ، وبخاصة بحث الاستاذ أ . ج . جرات أستاذ التاريخ الحديث في جامعة ليدز سابقاً .